البحث عن الهوية

د. محمد سامح سعيد

أستاذ بكلية الهندسة – جامعة القاهرة

==========

لا يمكن وصف الحالة المصرية بتحليل مبسط . فحين كانت سيناء تحت الاحتلال كان هناك شعور عام بالغضب والسخط والرغبة فى الانتقام والإصرار على التحرير . وتوحد الشعب وراء الجيش فى حرب أكتوبر لاستعادة الشرف والكرامة والأرض . ولم يبال بالتضحيات . ولكن شيئا ما حدث بعد اتفاقية السلام . فبدل أن يدرك الشعب أن الفرصة قد جاءت لبناء الوطن فى ظل الاستقرار والسلام انفرط العقد . ولعل الانفتاح المفاجئ والسوق الحر بعد سنوات من الاقتصاد الموجه سببا صدمة عند الشعب المصرى . ولاشك أن مفاهيم السلام نفسها وما صاحبها من استحقاقات جاءت أيضا صدمة أشد على النفس . كل أولئك الذين فقدوا أبناءهم فى الحروب وآخرها حرب أكتوبر وجدوا مناخا مغايرا لما كان سائدا قبل سنوات قليلة . فها هم أعداء الأمس يتجولون بحرية فى شوارع القاهرة ويضخ لهم الغاز وتباع منتجاتهم فى الأسواق بينما كان مجرد ذكر اسم دولتهم من قبل يبعث القشعريرة فى النفوس والكلام عن السلام معهم كان خيانة اعتذر عنها فكرى أباظة فى مقاله الشهير وقال أنها زلة قلم . نعم الأوضاع فى الدنيا تتغير ولكن أبهذه السرعة وهذا الاندفاع ؟ كان الفهم أن السلام القادم سيكون سلاما عادلا شاملا ينهى الصراع من جذوره فإذا به يتحول إلى خروج منفرد لمصر من ساحة الصراع . صحيح أن الفلسطينيين دعوا إلى الاجتماع الشهير فى مينا هاوس ورفضوا الحضور وبقى علمهم مرفوعا دون وفد . صحيح أنه مرت سنوات فإذا بالفلسطينيين أنفسهم يسعون سرا للسلام ثم علنا فى اتفاقية أوسلو . وهناك من قال لماذا تأخروا وكانت فرصتهم أفضل فى مينا هاوس ؟ هذا كله تاريخ . ولكن الأهم من ذلك كله هو أن إسرائيل لم ولن تحل المشكلة الفلسطينية وأن استحقاق السلام معها فرض على مصر أن تكون وسطا بين الفلسطينيين والإسرائيليين . فأصبح دور مصر غريبا على المصريين فهم تحت استحقاق السلام مطالبون أن يكونوا أحيانا فى صف الإسرائيليين فى الضغط على الفلسطينيين للقبول بما لا يرضونه ومن ثم صار هناك انفصام فى الشخصية المصرية بين الرغبة فى نصرة الحق والاضطرار إلى ممالأة الباطل وخاصة أن أمريكا والتى دخلت فى البداية كشريك وكحكم عدل تحولت إلى خصم يقف مع إسرائيل بدون مواربة ولا استحياء ضد العرب وضد المسلمين جهارا نهارا . ومصر التى تربطها أغلال حريرية بأمريكا التى تقدم لها المساعدات الاقتصادية وتطلب منها مقابل ذلك تحالفا وصداقة تجد نفسها أحيانا فى وضع محرج حين تضطر للوقوف إلى جانب الولايات المتحدة وهى على الباطل أو حين لا

تستطيع وهى محرجة أن تقف إلى جانب الحق العربى بوضوح وحزم يليق بمصر وبمكانتها . نعم أصبحت السياسة فى عصر العولمة ملتصقة بالمنطقة الرمادية وليست سياسة المواقف العنترية. ولكن بين الحق والباطل لا توجد مناطق رمادية . لا يمكن أن يُضرَب الفلسطينيون ويحاصروا ويجوعوا ونحن لا نقدر على نصرتهم . كيف يقول أولمرت أن حرب لبنان كشفت أن مصالح إسرائيل والدول العربية المعتدلة تلاقت ؟ أى بهت وضلال هذا ؟ صحيح تستثمر مصر علاقاتها الدبلوماسية مع الأطراف كلها ولكن إسرائيل فى صلفها وغرورها وحماقة القوة الأمريكية الجاهلة والظالمة لا تعير الكثير لمثل هذه الأدوار النبيلة التى تقوم بها مصر والتى تنشد منها بإخلاص أن يسود السلام العادل والشامل منطقة الشرق الأوسط والعالم كله . ولكن التمنى شىء والواقع شىء آخر . هذه التناقضات والإحراجات تسبب تمزقا فى الضمير المصرى وشعورا طاغيا بالإحباط واليأس . هل يتمسك الشارع بالقيم والمبادئ التى رضعناها صغارا ؟ هل مازال للقومية العربية معنى ؟ هل للانتماء الوطنى والتفانى من أجل الوطن له صدى بينما يطحن الموظف البسيط فى أزمة الغلاء والبطالة وهو يرى الرأسمالية المتوحشة تنهش لحم هذا الوطن كالسرطان وتزداد الفجوة اتساعا بين الأغنياء والفقراء ؟ لقد رفعت مرة شعارات تذويب الفوارق بين الطبقات والقضاء على سيطرة رأس المال على الحكم وتحالف قوى الشعب العاملة مع الرأسمالية الوطنية . شعارات تبدلت وتبخرت فى فترة عمر المواطن. تغيرت المفاهيم من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين فى سنوات قليلة . صحيح أن ذلك حدث فى دول أخرى أيضا من بينها الاتحاد السوفيتى ذاته والذى انهار فجأة وترك فراغا سياسيا وعقائديا فى العالم كله . ولكن أين هويتنا نحن ونحن أمام غزو منظم من وسائل الإعلام الغربى والإباحيات التى تبثها الفضائيات الغربية وتستهدف الشباب العربى لتحطيم ما بقى لديه من قيم وأخلاق ؟ أين يتجه هذا الشباب إذا استمسك بالدين ؟ فهو معرض حينئذ أن يلقب بالمتطرف أو المتشدد وإذا التزم بالأخلاق والمثل قيل عنه أنه قادم من كوكب آخر . ومع الضغوط المكثفة عليه وانتشار المخدرات وتأخر سن الزواج وتفاقم أزمة البطالة والسكن ماذا يفعل هؤلاء الشاب ؟ وماذا نقول لهم ؟ هل نكلمه فى الوطنية أم فى الأخلاق أم فى المشاركة السياسية ؟ الشباب ضائع ولابد أن نحميه من التطرف ومن الانفلات فى آن واحد . وما حدث فى العيد فى وسط البلد هو مجرد جرس إنذار . الخلاص هو البحث عن الهوية والعودة لجذور مبادئنا وتراثنا وقيمنا ودیننا فهو حصننا ومستقبلنا ووجودنا . ضماننا هو بقاء هذا الوطن قويا متقدما له شأن بين الأمم .